الحرية الاجتماعية عند الصوفية

للاستاذ فوزى عرفة

— ٢ —

والآن ما هو معنى الحرية عند الصوفية؟ أى ماهو التعريف الذى تقدم به الصوفية للحرية؟ بالطبع لا يمكن لنا أن نجد تعريفاً جامعا لها إلا ذلك التعريف الذى يشمل جميع الأنواع التى أسلفنا ذكرها: وهى الحرية السيكلوجية والاجتماعية والميتافيزيقية، وقد وردت تعريفات للحرية فى كتب الصوفية كثيرة بعضها يشمل الحرية السيكلوجية والآخر يجمع بين السيكلوجية والميتافيزيقية والبعض الآخر يشمل الحرية الاجتماعية: فعرفوا الحرية مرة بهذا التعريف السيكلوجى وهو «أن لا يكون العبد تحت رق المخلوقات» أو «الاعراض عن الكل» وعرفوها مرة ثانية بذلك التعريف الميتافيزيقى وهو «الاقبال على من له الكل» أو «ألا يدخل قلبك سوى الله» وذكر الصوفية تعريفا اجتماعيا للحرية وهو قولهم: «معظم الحرية فى خدمة الفقراء» قال أبو على الدقاق: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام إذا رأيت لى طالبا فكن له خادما.

وهكذا نجد الصوفية عندما يعرفون الحرية لا تضيق نظراتهم فيعرفونها من جانب ويهملون جوانب أخرى لا تقل أهمية عن ذلك الجانب الذى يركزون عليه وإنما يحاولون أن ينتبهوا إلى جميع شعاب الموضوع حتى لا يقعوا فى شر التعصب والمبالغة وقد أحسنوا كل الإحسان عندما سلكوا هذه السبيل لأنهم استطاعوا أن يقدموا للانسانية الحل الواقعى الصحيح لمثل هذه المشكلة الهامة.

أما كيف كان ذلك؟ فالأمر على هذا الوجه: نحن نعلم أن الإنسان قبل أن يقوم بتنفيذ الفعل لابد له من درجات شعورية يسلكها واحدة إثر الأخرى حتى يصل فى النهاية إلى مرحلة العزم والتنفيذ ويمكن لنا أن نلخص هذه المراحل على اختلاف جوانبها فى ثلاث مراحل: الأولى مرحلة الاستثارة والنزوع والأخرى مرحلة الإرادة والمنازعة بين أنواع الاستثارات المختلفة والمفاضلة بينها واختيار أفضلها عن طريق حكم التزامى

يلتزم به المرء بينه وبين نفسه . ثم تأتى بعد مرحلة التصميم السابقة مرحلة ثالثة وهى مرحلة التنفيذ حيث ينساب الشعور الداخلى إلى واقع ملموس وذلك عن طريق الفعل الذى يقوم به الإنسان .

هذه هى درجات الفعل التى يمر بها منذ حدوث الاستثارة والنزوع حتى مرحلة التنفيذ والواقع : وقد تحدث هذه المراحل متشابكة فيظن الإنسان أنها لا تسير فى ترتيب منتظم بينما لو أمعن قليلا لوجد أنه يقوم بهذه العمليات الشعورية الداخلية فى انتظام وترتيب يجعلها شيئا لا شذوذ فيه .

وقد فهم الصوفية هذه المراحل تمام الفهم ووعوها كل وعى ورأوا أن أول طريق تسلكه الذات للتحرر هو خلع الدنيا والبعد عنها حتى لا يتأثر الإنسان فى قرارذاته بأى عرض من الأعراض فيستقيم عقله ويبتعد عن الجور فى الأحكام وطالبوا الإنسان بأن يتحرر من كل قيد وخصوصا حجاب التقليد وفى ذلك يقول الغزالى « وإنما يرتفع حجاب التقليد بأن يترك التعصب للمذاهب وأن يصدق بمعنى قوله لا اله إلا الله محمد رسول الله تصديق إيمان ويحرص فى تحقيق صدقه بأن يرفع كل معبود له سوى الله تعالى ، وأعظم معبود له الهوى حتى إذا فعل ذلك انكشف له حقيقة الأمر فى معنى اعتقاده الذى تلقفه تقليداً فينبغى أن يطلب كشف ذلك من المجاهدة لا من المجادلة » وطالبوا الإنسان كذلك لتتحقق له الحرية بان يقلع عن المعصية وأن يلجا إلى الخلوة والصمت والجوع والسهر ثم يشتغل بالذكر والمراقبة والفكر حتى يكبح جماح نفسه ويمنعها من ولوج باب الكبر والعجب والرياسة وما إلى ذلك من المهلكات .

وتأتى بعد هذه التصفية والتنقية عملية النية والإخلاص والصدق فإذا أخلص الإنسان اندفع عمله نحو الخير وأصبح قريبا من الهداية والرشاد ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نية المرء خير من عمله » ثم تأتى مرحلة هامة بعد ذلك وهى مداومة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والتفكر فى النفس الإنسانية وخلق الله تعالى .

وبهذه الكيفية يمتلك الإنسان وسائل تحقيق الحرية بجميع جوانبها : السيكلوجية والاجتماعية والميتافيزيقية أما من الناحية السيكلوجية فقد أصبح مالكا لزمام نفسه يسيرها كيفما يشاء ويصدر أحكامه فى روية وتدبر وإمعان وتفكير وان تستطيع شهوة مهما قويت أن تمنع الذات من إقرار الأحكام الصائبة التى يطبقها الإنسان وينصرف إلى تحقيقها ولهذا لا يهتم الصوفى بأعراض الحياة حتى لا يؤثر ذلك فى أحكامه

وقراراته عملا بقول الرسول « إنما يكفى أحدكم ماقنعت به نفسه وإنما يصير إلى أربعة أذرع وشبر وإنما يرجع الأمر إلى آخره » وعملا بقول المشايخ « إن الحرية هى سقوط التمييز عن القلب بين الأشياء فيتساوى عنده أخطار الأعراض » واتباعا لحارثه رضى الله عنه الذى قال للرسول عليه الصلاة والسلام « عزفت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى حجرها وذهبها » ولهذا قال الأستاذ ابو على الدقاق « من دخل الدنيا وهو عنها حر ارتحل إلى الآخرة وهو عنها حر » وهكذا نرى ان الصوفية عضواً بالنواجز على تحقيق الحرية السيكلوجية وذلك بألا يتركوا فى نفوسهم ذرة من طمع وقد صدق الشاعر حين قال :

الحر عبد ما طمع والعبد حر ما قنع

وصدق ابن عطاء الله السكندرى عندما قال « انت حر مما انت عنه آيس وعبد لما أنت له طامع » وسئل الجنيدعمن لم يبق عليه من الدنيا إلا مقدار قص نواة فقال : « المكاتب عبد ما بقيت عليه درهم » وقال الجنيد « إنك لا تصل إلى صريح الحرية وعليك من حقيقة عبوديته بقية » وبهذا يحقق الصوفى حياد عقله بين مختلف القضايا المعروضة أمامه فيستخدم هذه الوسيلة الموهوبة له فى تبصر موقعه من الحياة ومعرفة طريقه فى الوجود وهو لهذا يندفع ليحقق وجوده ويعيش ذاته ويخوض معركة الحياة بكل ما فيه من طاقات إبداعية وقدرات خلاقه .

عرفنا كيف وصل الصوفية إلى تحقيق الحرية الذاتية إلا أنهم لم يقفوا عند هذا الأمر فساروا فى الطريق إلى آخر الشوط وقد برهنوا بذلك أن الحرية التى حاولوا امتلاكها لم يسيئوا استخدامها فيكونوا كالطفل الغرير الذى امتلك نصلا حاداً فراح يضرب به ذات اليمين وذات الشمال فتناثر من حوله الجثث دون أن تطرف عينه بدمعة واحدة يذرفها من أجل هؤلاء الضحايا ، أقول لم يفعل الصوفية شيئا من ذلك وإنما برهنوا على أن الحرية التى ينالونها إنما تكون فى نهاية الأمر الوسيلة لتواضع النفس وكبح جماح الشهوة من أجل سعادة البشر والاندماج فى سلك الكون والخضوع التام للذات الإلهية ، ولهذا كانت حرية الصوفية نقطة الانطلاق فى سبيل خدمة الفقراء ومن هنا يمكن لنا أن نفهم قول الحسين بن منصور الحلاج « من أراد الحرية فليصل العبودية » وهذه العبودية لها جانبان : جانب اجتماعى فتسمى حرية اجتماعية وجانب يبين الصلة بين الصوفى والله فيسمى حرية ميتافيزيقية .

أما الحرية الاجتماعية فتكون فى خدمة الفقراء ، قال أبو على الدقاق « أوحى

الله تعالى إلى داود عليه السلام : إذا رأيت لى طالبا فكن له خادما وقال صلى الله عليه وسلم « سيد القوم خادمهم » وقال يحيى بن معاذ « أبناء الدنيا تخدمهم الإماء والعبيد وأبناء الآخرة تخدمهم الأحرار والأبرياء » وقال إبراهيم بن أدهم « إن الحر الكريم يخرج من الدنيا قبل أن يخرج منها » وقال أيضا « لا تصحب إلا حراً كريما يسمع ولا يتكلم » .

وقد ضرب الصوفية فى استعمالهم لهذه الحرية الاجتماعية بوجهها الذى بيناه أروع الأمثلة فى التضحية والفداء والبذل والجهاد والمصابرة والجلاد والمرابطة والعمل فكانوا قادة الإنسانية فى هذا الإحساس الاجتماعى قبل أن تظهر نظريات المنفعة الجماعية والشيوعية المادية بما فيها من بشاعة وضعف واستبداد .

إن هناك فرقا كبيراً بين من يبذل من نفسه ودمه وروحه فى سبيل الجماعة وبين من يخضعه القانون للجماعة فذان أمران متناقضان أحدهما يعمل بالاقتناع والآخر يعمل بالقوة والقمع والخوف وفرق بين من يبذل لإيمانه بالإنسانية والخير وبين من يجبر على البذل لتبادل المنفعة ودرأ الخطأ المحتوم من الجماعة أو من القانون على حد سواء .

ها هنا يتحقق التوازن بين الأنا واللهو بين الذات والآخر بين الفرد والجماعة ويظل للأمر جانبه الثالث وهو المحور الهام الذى دفع الصوفى إلى الحرية السيكلوجية والاجتماعية ، إنه جانب علاقته بالله : تلك العلاقة التى يراها خروجا من الدنيا بما فيها وعزوفا عمن فيها أى فى كلمة موجوزة الأعراض عن الكل والإقبال على من له الكل .

يقول القشيرى فى رسالته : قال أحد أهل المعرفة « اعلم أن حقيقة الحرية فى كمال العبودية . فإذا صدقت لله تعالى عبوديته خلصت عن رق الأغيار حديثه فأما من توهم أن العبد يسلم له أن يخلع وقتا عذار العبودية ويحيد بلحظة عن حد الأمر والنهى وهو عيز فى دار التكليف فذلك انسلاخ من الدين : قال الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم : واعبد ربك حتى يأتيك اليقين — يعنى الأجل » وقيل للشبلى : الا تعلم انه رحمن ؟ فقال : بلى ، ولكن منذ عرفت رحمته ما سألته ان يرحمنى » وقال بشر الحافى « من اراد ان يذوق طعم الحرية ويستريح من العبودية فيطهر السريرة بينة وبين الله تعالى » وقال الحسين بن منصور « إذا استوفى العبد مقامات العبودية كلها يصير

حداً من لقب العبودية فيترسم بالعبودية بلا عناء ولا كلفة وذلك مقام الأنبياء والصديقين : يعنى يصير محمولا لا يلحقه بقلبه مشقة وإن كان متحليا بها شرعا .

ولكن قد يقال : إن العبودية التى يرتضيها الصوفى للذات الإلهية إنما هى راجعة إلى الحتمية والجبر لا إلى الاختيار والكسب إلا أن الصوفية يردون على هذا القول بما لا يحتمل الجدل والتأويل فيقول الكلاباذى « وأجمعوا أنهم مختارون لاكتسابهم مريدون له وليسوا بمحمولين عليه ولا مجبرين فيه ولا مستكرهين له ، ومعنى قولنا : مختارون أن الله تعالى خلق لنا اختيارا فانتفى الإكراه فيها وليس ذلك على التفويض قال الحسن بن على رضى الله عنهما إن الله تعالى لا يطاع بإكراه ولا يعصى بغلبة ولم يهمل العباد من المملكة » وقال سهل بن عبد الله : ان الله تعالى لم يقو الأبرار بالجبر انما قواهم باليقين وقال بعض الكبراء « من لم يؤمن بالقدر فقد كفر ومن أحال المعاصى على الله فقد فجر » وهكذا يتبين لنا أن الصوفية ينظرون إلى مشكلة الحرية من جميع جوانبها ولا يهتمون بجانب ويهملون الآخر بل يوفقون بين جميع الموضوعات فى انسجام جميل وحبكة لطيفة تعطى لمذهبهم طرافة وجدة وتميزاً وانفراداً بحيث يبدو متماسك الأجزاء مجموع الأطراف قوى الحجة واضح البرهان ؟